بقلم تشارلز اوكونل

ترجمة عبد الرحمن البيطار

تمهيد

لانعلم هل كان «تشايكوفسكي» نفسه يعرف أن سمفونيته هذه ستكون بمثابة وداع مؤثر له بالنسبة للحياة ، ام لا ؟ .. والظروف الغريبة التي احاطت بهذا التأليف الموسيقي منذ كتابته حتى عزفه تدعو الى العجب. في هذه السمفونية نلحظ بوضوح تام أثر الألم والكآبة والغم والافكار التشاؤمية التي اثارت عوامل الشك والتردد في نفس تشايكوفسكي ، فلما انتهى منها عمد الى الانتحار ! .. وتدعى هذه السمفونية أيضاً – ولو من باب المبالغة – «سمفونية الانتحار » . اذ لعل تشايكوفسكي ، كأي انطوائي منعزل متشائم ، فكر في أن يضع حداً لآلامه وتعاسته بالقضاء على حياته ؛ لكن التبصر والتأمل في فعلته هذه ، دعاه لأن يبتعد عنها ويطردها من مخيلته . ولكنه بعد سماعه تأليفه الموسيقي الحزين الكئيب هذا الذي يكاد يفري الكبد ألماً ، قد عاودته فكرة الأنتحار ، غير أن تفكيره بأنه لن يكون حاضراً في حفلة العزف الاولى لهذه المأساة المريعة ردعه مرة أخرى عن فكرة الأنتحار .

لم يكن المؤلف ممن يحبون النقد ، أو يتقبلون التخطئة والانتقاد بصدر رحب ووجه بشوش ؛ وحينما قوبلت هذه السمفونية ببرود ملحوظ من النقاد ومن المستمعين ، وحتى من العازفين انفسهم ، انتابت تشايكوفسكي الهواجس وعصفت به الآلام ، فلم يجد للمرة الثالثة من مخلص له سوى الانتحار !

فالسمفونية هذه ، التي ادارته في دوامة اليأس والقنوط ، هي قصة حياته وشقائه وعذابه . فهي تعبر عن الأحزان الشديدة والآلام القاسية التي في بحر الحياة وخضمها ، وعن محاولة التغلب على تلك الاحزان وتلك الآلام بسرور متصنع متكلف ، ثم عن انتفاضة قوية ضد اليأس والاستسلام لا تلبث أن تموت وتضمحل .. وتفنى عندما يأتي الشبح الرهيب : « شبح الموت » .

عزفت هذه السمفونية لأول مرة في سانت بطرسبرغ في ٢٨ تشرين أول عام ١٨٩٣ ، وقاد الاوركسترا تشايكوفسكي نفسه . ولما قوبلت بذلك البرود وعدم الاكتراث ازدادت آلام تشايكوفسكي على آلامه السابقة ، وغدت حالته أكثر كآبة وتشاؤماً عن ذي قبل . ثم عزفت مرة ثانية بعد أسابيع قليلة ، وبقدرة قادر انقلب برود الجماهير الى حماس ملتهب ، وعدم اكتراثهم الى تصفيق جنوني ؛ لكن تشايكوفسكي لم يكن حاضراً ليشهد بعثه وانتصاره مرة اخرى ، اذ كانت جثته هامدة باردة في القبر !

فكر تشايكوفسكي في أن يطلق اسم « سمفونية ذات برنامج » على هذه السمفونية ، لكنه عاد فأمعن النظر .. اي « برنامج » ترويه ؟.. فاقترح عليه أخوه « موديست » أسم (تراجيك) ، لكن التسمية لم ترق له فرفض ، وعاد موديست فأقترح أسم (باتتيك) ، والتفت تشايكوفسكي دهشاً وقد اعجبته التسمية ، ثم صاح : « تلك هي » .

الحركة الاولى

تبدأ هذه الحركة بنغمة متوجسة خائفة من (الباسون) المنفرد ، لا تلبث أن تتكامل فكرتها عندما تتلاحق آلات الاوركسترا تباعاً ، فتظهر الكآبة والسوداوية كشيطان أمرد يرقص على أنات الاسى وراء الجدران والخيالات ، وتنهض الآلات الوترية (اسرة الكمان) من سباتها ، وتقوم لتشارك الباسون حزنه وألمه ، كأنها صديق يريد أن يواسي صديقه ، وتسمع اصوات (التشلو) و (الجهير) تردد الصدى وهي ثملة متعبة . وتعود النغمة الاولى الى الظهور وتشاركها الكمنجا (فيولون) بعصبية ظاهرة . ومن هنا تبدأ الحركة في وضعها الطبيعي .

الآن يبدأ اللحن الرئيسي والفكرة الهامة بصورة مبعثرة متفرقة لا تلبث أن تزداد وضوحاً واكتمالا ، ويتم التقارب بين أجزاء اللحن . وهنا تظهر براعة تشايكوفسكي في التوزيع الموسيقي ، فنسمع اللحن مرة من الآلات الوترية وأخرى من الآلات الهوائية .. ذلك اللحن الباكي . ويحاول (الفلوت) بنغماته الشجية ادخال الفرح والمرح على الفكرة التشاؤمية الحزينة المسيطرة ، ويحاول زخرفة فرحه وتلوينه ولفت النظر اليه بشتى الوسائل ، لكنه كمن يحاول الابتسام والضحك خلف أناته ودموعه ، والألم يهصره . وتأتي الكمنجات لتساعد الفلوت في دعوته ، فكلما ازداد الألم المنبعث من الاوركسترا عادت تلك الآلات تحاول ، بقدر ما تستطيع ، ابدال الحزن سروراً ، والألم أنشراحاً ، والكآبة فرحاً ، والتشاؤم مرحاً ، ويتكرر هذا اللحن الشبيه بالكلام المنمق المسجع الجميل ،

عزفها كرجل يذرع غرفته جيئة وذهاباً .. يفكر في حزنه وألمه وفاجعته ، ثم يطأطئ رأسه أرضاً . والدموع الحبيسة تكاد تنفجر ينابيع من مآقيه .

وأخيراً فقد انتهى زمن الحركة . فتغوص الموسيقى الى أعمق غور الصمت والسكون . فتذكرنا نحن المستمعين بتلك الأبيات الرائعة :

لمن أحببناه كثيراً ..
وأكثر من الجميع ...
لمن يتدحرج الزمن ويمضي من بين أنامله ..
كما تتدحرج حبات العنب بين يديه ...
قد جرعنا كأسنا حتى الثمالة ..
ثم مضينا واحداً تلو الآخر ..
بصمت وسكون .. نحو الراحة الأبدية ..

الحركة الثانية

أول ما يطرق آذاننا من تلك الحركة هو لحنها الغريب ، فكأن الفرح حبيس يحاول الانطلاق . لكنه يخفق فيحاول ستر عجزه بالابتسام المتكلف الذي لا يلبث أن يتحول الى تصميم على أن يكون ابتساماً . على أية حال . فهذا اللحن من نوع الفالس . لكنه ليس بفالس . لان عنصر « انسجام الاطراف والتوازن بين شقتي اللحن ينقصه . فهو فالس متلعثم متحجج مضطرب . يبدأ من التشلو وتنضم اليه ملحقات الالآت الوترية . ويحاول هو أن يدعي لنفسه أسم « الفرح » . ثم ينتقل هذا اللحن الى آخر . لكن السعادة بعيدة المنال فهي تخايل وتراوغ

صدر حديثاً

عبير الصحراء

للشاعرة

نـــــــداء

نجاوى عاطفية لشاعرة الصحراء الشابة ...

من الصحراء العربية .. وفي السابعة عشرة من عمرها . تغني الشاعرة احاسيسها في قصائد لا غنى للمثقف العربي عن اقتنائها .

من كتب المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر

ص. ب. ٣٥١٥ بيروت - لبنان

بينما المأساة تستمر . وتتناوب الآلات في تصوير المشقة والمكابدة من الألم ... الألم . ذلك المعنى الذي نعجز عن أن نبدله بسعادة دائمة . لكن النتيجة على أية حال من التفكير في الألم . هي الألم ذاته ... الألم سيترك جرحاً لا يندمل . وأسى لا يزول .

الحركة الثالثة

في هذه الحركة نشعر أن تشايكوفسكي قد أنتبه الى نفسه . وأيقظها من خمولها . وخلصها من مرض السوداوية الذي كاد يفتك بها ... نراه وقد رفع يديه ملوحاً مهدداً بحر المتاعب . يريد أن يوقفه في مشيته ويعترضه في سبيله ، ويرد له الصاع صاعين .. ونلمح بوضوح انتفاضة قوية ضد اليأس القاتل والقنوط الفتاك .. نلمح انتفاضة تدعوا الى الانتصار على المتاعب بصفاء النفسية وقوة الارادة . وكأن الحيوية تمشي مشية عسكرية واحدة تحاول انتزاع الحزن ومحو الألم . وتحس النفس (نفس تشايكوفسكي) بأن ساعة الخلاص قد دنت وساعة النجاة قد اقتربت . فينفرج ثغرها عن أبتسامة وضاءة ولسان حالها يقول : الفرح .. ما أحبه !

تحاول (الاوبوا) أفساد الجمال وقتل الفرح . وتسمع همهمة من بقية الآلات كأنها تتشاور فيما بينها للاجماع على قرار بالنسبة للدعوة الجديدة . لكن الآلات تختلف بين مؤيد لدعوة الحزن ، ومعارض لها . ويحمى وطيس المناقشة ، وتحاول الأبواق جمع شتات المتفرقين ، فتسير بهم — على غير هدى — في لحن قوي متين نحو ذروة الروعة في هذه الحركة . لكن أنصار الحزن بدأوا يعملون ، فهم يدبرون مكائدهم ، ودسائسهم ليعيدوا الحالة كما كانت عليه .. حزينة باكية ، فيبددوا ضياء الفرح بسواد الألم ، وربيع السعادة بشتاء الكآبة . وأنصار السرور لا يريدون الاستسلام بسهولة ، فتقوم المنازعات بين الآلات . كل يدعو لفكرته ويضعها أساساً للنجاح .. لكن امهم الرحيمة الصامتة الصبورة : الاوركسترا قد بدأت تضيق بهم وبسخفهم وأعمالهم الصبيانية ، فتنفجر بكل قواها ساخطة .. مدمرة .. مكتسحة .. ويشتد العنف بين الآلات التي لم يعجبها هذا القرار ، وتشتد المنازعات .. فالطبول تقرع هائجة مائجة . والصنوج تصطرع وهي تلتطم .. . والكمنجات تحاول رفع عقيرتها والارتفاع

وكأن بقية الآلات قد اقتنعت بتلك الدعوة ، ومن ذا الذي لا يحب الفرح ؟؟ .. لكن النغمة المتوجسة الخائفة تعود مرة أخرى فتفسد الجو الرائع الذي كاد أن يسود ، كنقطة السم التي تفسد كأساً من الماء النقي الصافي . وكأن الاوركسترا قد ملت وتعبت من ذلك الصراع الذي تدور رحاه في أعماقها وبين أحشائها ، فتردد نغمة واحدة على وتيرة واحدة تحاول انهاء الصراع . وتموت الأنة المرتجفة التي تنبعث من التشلو ، بينما تعلو أصوات (الفيولا) لتسيطر على الموقف . وفجأة يخيم الصمت .

ثم تنطلق الكمنجات برقة ونعومة ، وتجتمع أنغام الكمنجات هذه بأنغام التشلو ، فنسمع منهما لحناً خفيفاً لطيفاً فيه حرارة وفيه دفء . ثم ينتقل هذا اللحن الى نغم رائع من أجمل أنغام السمفونية ، وهو أيضاً من أروع الالحان التي خطتها يد تشايكوفسكي الطلقة في تسطير الالحان الحزينة . ويتداخل الفلوت في هذه المباراة اللحنية ، فينثر الحانه الشجية هنا وهناك ، ويقلده الباسون باستهزاء ظاهر ، ثم تزداد ضخامة التعبير اذ تلتف حول هذه الالحان صرخات وهتافات عنيفة من بقية الآلات ، وتنتهي أيضاً تلك المنازعة... ثم تعود نغمة الكمنجات البراقة العذبة الى الظهور رغم كل المنغصات ، وكأن (الشعور) في هذا اللحن قد فارقه فأضحى بلا شعور ، فيقترب اللحن من شيخوخته فاقداً عناصر قوته وشجاعته ، حيث يستلم دفة العزف (الكلارينت) الحزين الذي لا يلبث أن ينخفض تدريجياً بحلاوة ورقة الى أن يغيب.. ويذوب .. ويضمحل ، وكأن الباسون قد أعجبه لحن الكلارينت فأراد تقليده لكنه نسي علاماته الاولى ، وبقيت في ذاكرته العلامات الأخيرة ، فأخذها هو وأعادها بلغته الخاصة . وفجأة ، وبلا مقدمات ، تقوم ضربات متتالية من العنف والقوة والحدة تكاد تمزق قلب الاوركسترا الضعيف الواهن ، وتكاد تحطم كل بقايا الرقة والعذوبة اللذين سيطرا على العزف منذ البدء حتى الآن ... كأنها قوة مطلقة تتدفق وتنصب ، فتحيل الضعف عنفاً ، والاستكانة شدة ، والوهن صلابة . ولكن ككل امرئ فقد سيطرته بعد طول حكم ، فيعود وقد هذب نفسه ويبدأ في محاربة عدوه بنفس سلاح العدو ، وهكذا عادت الكآبة وعاد الحزن وقد أشتد ساعدهما فيهجمان بضراوة وشراسة ، ويكاد الحزن يحطم ما يلقاه في سبيله من أجل استرداد مكانته السابقة ، فيعاود فرض سيطرته اذ بالعنف تمكن السيطرة ، ويبدأ في نشر لحنه المتوجس الخائف مرة أخرى .

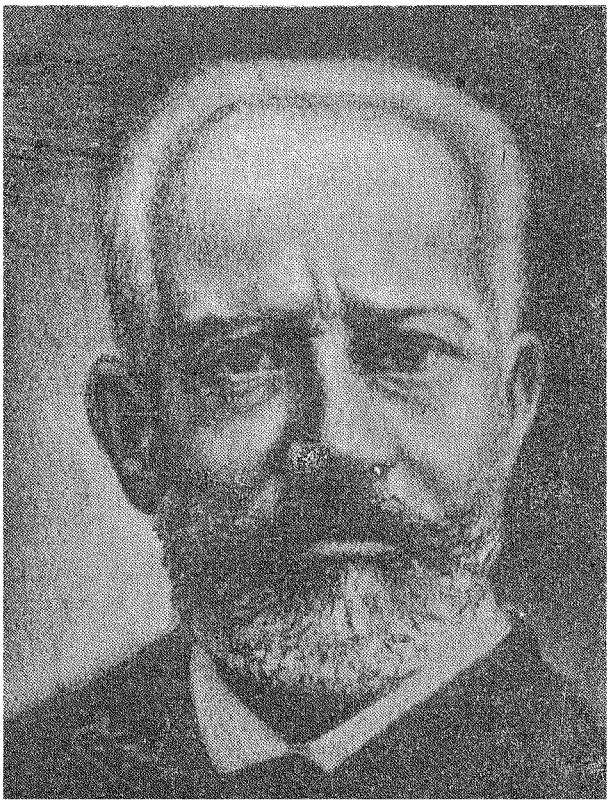

تشايكوفسكي

ركون ثم انتفاض.. سكون ثم قوة .. ان هذا ما يحير الاوركسترا التي مرت عليها الاحداث حتى الآن كما تمر جحافل الجيوش أثناء الاستعراضات ، فيحدث شبه هياج أو غليان بين ضلوعها ، وتتراشق الآلات فيما بينها وقد أعمتها الغيرة ، وطمس على قلبها الحقد وحب السيطرة ، فلا تعود قادرة على التفريق بين صاحبها وعدوها .. بين مريدها ومريد تحطيمها ، وتكاد الآلات الوترية تقفز خارج المكان وهي ترعق وتصرخ ، والآلات الهوائية ترد على الصراخ والزعيق بمثله .. وتحاول الابواق أطفاء السعير المشتعل ، ويعاونها الجهير بصوته القوي الرهيب كأنه صلاة روسية على روح الميت . ويبلغ النزاع الذروة ، حيث يحس الهياج والغضب نفسهما بوخز ابر الألم ، وتعود الذكريات الحزينة التي بدأت بها السمفونية للتراءي ، كأنها الأغاني الشعبية المنسية ، أو كأنها كلمات رائعة المعاني تركها الأنسان بحجة استغنائه عنها . وهنا نجد أنفسنا قد غصنا الى أعمق نقطة في تفكير تشايكوفسكي في أروع واجمل مقاطع من موسيقاه البديعة . تعاود الكمنجات

بألحانها ، فنحس كأن النار قد بدأت تلتهم الاوركسترا ، والسعير اللاهب قد بدأ يأكلها .. وتخف الحدة ، ثم تنتهي الحركة بقرع خفيف من الطبول .

الحركة الرابعة

كل نصر زائل . وكل نجاح فارغ . وكل مسعى ضائع تلك هي الأفكار التي تريد الحركة الرابعة أن تمليها علينا نحن المستمعين . ونحن لم نسمع حتى الآن في أية قطعة موسيقية مؤلفاً يقول لنا بصراحة تامة وحزم : « لقد ضاع كل شيء »! لكن هذا ما تحدثنا به تشايكوفسكي نفسه. والحركة هذه عبارة عن توالي الأفكار : الألم والمرارة والبكاء ، لكن هذه الأفكار سرعان ما تختفي عندما تظهر أنغام غيرها قائلة : « ليس الآن وقت الحزن والعويل » ، لكن الآلات لا تقتنع بهذا المنطق الفارغ فتمضي في أنغامها الشبيهة بالصلاة على ارواح الموتى ويتلوها الباسون وقد فقد مرحه واستهزاءه .. يهتز ذات اليمين وذات الشمال وقد ناء ظهره باحزانه وآلامه ، وتعود الكمنجات والتشلو الى أغنيتها الكئيبة .

وفجأة يعلو الصخب .. لبرهة ثم يهدأ ، فلا نعلم ما الذي حدث أو سيحدث ، ثم تسير رتيبة عادية ، ومرة أخرى تنفجر الضربات القوية بعنف .. الآن حدث شيء ..

انها النهاية .. عنيفة شديدة قوية ، لكن بلا شجاعة ... هي استسلام بلا محاولة للهرب من الشبح الرهيب .. الموت .. الموت .. اذن فقد انتهت الآلام والاحزان . ويمضي تشايكوفسكي في موسيقاه نحو الموت ، لا كرجل شجاع مستعد لملاقاة خصمه وجهاً لوجه ، بل كجبان رعديد يرى في الموت نهاية شقائه .. وبدء سعادته !

ولكن لنكن منصفين .. عادلين ، ولو قليلا .. لنكن غير متحاملين على تشايكوفسكي ، فهو قد صور لنا قصة حياته وعذابه وآلامه تصويراً صريحاً صادقاً ، فشخص لنا نفسيته على حقيقتها .. هدوءها واضطرابها وغموضها وضعفها ، بألحان من أروع الالحان .

تلك هي آلام تشايكوفسكي ، وتلك هي أحزانه ، لكننا لو عرفنا الحقيقة التي تكمن وراء هذا التردد والغموض لرثينا لحال المؤلف.. اذ كانت أسعد اوقاته عندما يكون حزيناً ! ..

دمشق — عبد الرحمن البيطار

نداء

لينا برهان الجيوسي ، ابنة الشاعرة المعروفة سلمى الخضراء الجيوسي ، هي طفلة في السابعة من عمرها ، تتفتح براعمها في هذه الفترة من حياتها عن شاعرية مبكرة ، تذكرنا بشاعرية الطفلة الفرنسية «مينو درويه» التي اثارت ضجة كبيرة منذ أشهر في اوساط فرنسا الأدبية .

وسيجد القارئ ، في هذه المقطوعة النثرية التي ارسلتها الينا الطفلة لينا ، شعوراً نابضاً يم عن حساسية مرهفة هي ينبوع كل شاعرية ..

فهل تراها عبقرية عربية جديدة ، على طريق التفتح ؟

[الآداب]

•

هانئة ، هانئة أين أنت
قلبي يبكي عليك .
والهواء النسيم يركض ليفتش عليك .
هانئة أين أنت ؟
قولي لي أين أنت يا هانئة
أين أنت ؟
اني كنت أقطع الحشائش الخضراء
لأفتش عليك .
أما الهواء النسيم
فهو يركض ويقول : قولي لي يا هانئة
أين أنت ..

بغداد — لينا برهان الجيوسي